المشرق

الجزء الثاني عشر من المجلد الثاني والثلاثين

١ دسمبر (كانون الاول) سنة ١٩٠٧ — الموافق ٢٥ شوال سنة ١٣٢٥

كتاب لباب الآداب

وقع لنا في هذه الايام كتاب من خيرة كتب الادب العربية وهو كتاب من مشاهير الكتّاب وهو اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني. والنسخة التي وقعت لنا هي النسخة الاصلية التي كتبت لمؤلف سنة ٥٧٩ للهجرة ولد وهبها لابنه وكتب ابنهُ عليها بيده يقول ان اباهُ وهبهُ اياها كما سيجيء. فهي من اقدم كتب الخط العربية المخطوطة الى الآن

والكتاب متوسط الحجم طولهُ ٢٣ سنتمترًا ونصف سنتيمتر وعرضهُ ١٥ سنتمترًا وفيهِ ٢٤٩ ورقة في واحد وعشرين كراسًا لا يتنصهُ الا ست ورقات من الكراس الثاني وجانب من حاشية الورقة الاخيرة

واسم الكتاب في الصفحة الاولى ايضًا محيط بيونقوش مذهبة وزرقاء وتحتهُ اسم المؤلف ويحيط بالاثنين برواز منقوش. وقد نقش ولدهُ في ما كتبهُ رسم حولهُ دوائر تحيط بهِ كالنيوم بحبر اسود وذهبي وملأ ما بين السطور بنقوش عقفاء تدلُّ على ان الناس كانوا قد خرجوا من قيد الخطوط المستقيمة وعكفوا على التحسينات شأن المصورين. وخط الكتاب واضح جميل وحبرهُ اسود براق وحروفهُ المتصلة منقوطة غالبًا ما عدا الكلمة التي تكتب في آخر الصفحة وتعاد في الصفحة التالية فانها غير منقوطة في الغالب ويحتمل ان يكون النقط طارئًا على الكتاب لكنَّ هذا الاحتمال بعيد لان حبر النقط مثل حبر الحروف تمامًا وجسمها يدل على انها مكتوبة بالقلم الذي كتبت بهِ الحروف. ويمتاز بتعلق بعض الحروف المنفصلة فاذا وقعت بعد الالف ذال او ذال او عين او غين علقت الالف بها كما تعلق باللام في الخط الديواني واذا وقعت بعد الدال باء منقطة مثل عندي علقت بها وكثيرًا ما توصل الكلمة الواحدة بالتي

بعدها. وتترك الكاف احياناً من غير شرطة ولاسيما اذا كانت في اول الكلمة. وليس في وسط الكاف الاخيرة كاف صغيرة . وقلما توضع علامة لحروف مهملة

وفي الكتاب علامات تدلُّ على ان الناسخ قرأهُ للمؤلف فاصلح فيهِ قليلاً لكنَّ المؤلف لم يقرأهُ بنفسهِ إما لضعف بصرهِ في شيخوختهِ او لسبب آخر لان الكاتب يخطئ احياناً خطأ صرفياً لا يدركهُ من يسمع ولا يقرأ ولو رآهُ المؤلف لاصلحهُ حتماً

وهذه الامور العرضية يعتريها اليوم جماعة من العلماء الذين يبحثون عن الخطوط والكتب القديمة المعنا اليها الماءُ وجوهر الكتاب قائم بموضوعهِ واسلوبهِ فقد قسمهُ المؤلف الى سبعة ابواب وهي باب الوصايا وباب السياسة وباب الكرم وباب الشجاعة وباب الآداب وباب البلاغة وباب الفاظ من الحكمة في معانٍ شتى

ويبتدئ الباب بآيات من القرآن تتلوها احاديث نبوية ثم اقوال حكمية يتخلل بها ونوادر واشعار ونحو ذلك مما يرى بعضهُ في كتاب الغرر والدرر للوطواط وكتاب محاضرات الادباء للراغب الاصبهاني

والمؤلف كاتب مشهور ترجمهُ ابن خلكان في وفيات الاعيان وقال انهُ من اكابر بني منقذ اصحاب قلعة شيزر وصلاتهم وشجعانهم لهُ تصانيف عديدة في فنون الادب ذكرهُ ابو البركات بن المستوفي في تاريخ اربل واثنى عليهِ وعدَّهُ في جملة من ورد عليهِ واورد لهُ مقاطيع من شعرهِ وذكرهُ العماد الكاتب في الخريدة وقال بعد الثناء عليهِ سكن دمشق ثم نبت بهِ كما تنبو الدار بالكريم فانتقل الى مصر فبقي بها مؤمراً مشاراً اليهِ بالتعظيم الى ايام الصالح بن رزيك ثم عاد الى الشام وسكن دمشق ثم رماهُ الزمان الى حصن كيفا فاقام بهِ حتى ملك السلطان صلاح الدين رحمهُ الله تعالى دمشق فاستدعاهُ وهو شيخ قد جاوز الثانين. وقال غير العماد ان قدومهُ مصر كان في ايام الظافر بن الحافظ والوزير يوسف بن السلار فاحسن اليهِ وعمل عليهِ حتى قتل حسبما هو مشروح في ترجمتهِ. قلت ثم وجدت جزءاً كتبهُ بخطهِ للرشيد بن الزبير حتى يلحقهُ بكتاب الجنان وكتب عليهِ انهُ كتبهُ بمصر سنة احدى واربعين وخمسمائة فيكون قد دخل مصر في ايامهِ واقام بها حتى قتل العادل بن السلار اذ لا خلاف انهُ حضر هناك وقت قتلهِ. ولهُ ديوان شعر في جزئين موجود في ايدي الناس ورأيتهُ بخطهِ ونقلت منهُ قولهُ

لا تسعر جاداً على جراتهم فقواك تضعف من صدود دائمِ
واعلم بانك ان رجعت اليهم طوعاً والاَّ عدتَ عودة راغمِ

ونقلت منهُ في ابن طليب المصري وقد احترقت دارهُ

انظر الى الايام كيف تدولنا قسرًا الى الاقرار بالاقدارِ
ما أُوقد ابن طليب قط بدارهِ نارًا وكانت خرابها بالنارِ

ونقلت من ديوانهِ ايضًا ابياتًا كتبها الى ابيهِ مرشد جوابًا عن ابيات كتبها ابوهُ اليهِ وهي

وما اشكو تلوّن اهل ودّي ولو اجدت شكيتهم شكوتُ
ملئت عتابهم ويئست منهم فما ارجوهُ فيمن رجوتُ
اذا ادمت قوارضهم فؤادي كظمت على اذاهم وانطويتُ
ورحت عليهم طلق المحيا كأني ما سمعت ولا رأيتُ
تجنّوا لي ذنوبًا ما جنتها يداي ولا امرتُ ولا نهيتُ
ولا والله ما اضمرتُ غدرًا كما قد اظهروهُ ولا نويتُ
ويوم الحشر موعدنا وتبدو صحيفة ما جنوهُ وما جنيتُ

ولهُ بيتان في هذا الروي والوزن كتبهما في صدر كتاب الى بعض اهل بيتهِ في غاية الرقة وهما

شكا الم الفراق الناس قبلي وروّع بالنوى حيٌّ وميتُ
واما مثل ما ضمّت ضلوعي فاني ما سمعتُ ولا رأيتُ

ونقلت من خط الامير ابي مظفر أُسامة بن منقذ المذكور لنفسهِ وقد قلع ضرسهُ وقال عملتهما ونحن بظاهر خلاط وهو معنى غريب ويصلح ان يكون لغزًا في الضرس

وصاحب لا أُملُّ الدهر صحبتهُ يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهدِ
لم ألقهُ مذ تصاحبنا لحين بدا لناظريَّ افترقنا فرقة الابدِ

قال العماد الكاتب وكنت انمي أبدًا انباءهُ واشيم على البعد محياهُ حتى لقيتهُ في صفر سنة احدى وسبعين وسألتهُ عن مولدهِ فقال يوم الاحد السابع والعشرين من جمادى الآخر سنة ثمان وثمانين واربعمائة قلت بقلعة شيزر . وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة اربع وثمانين وخمسمائة بدمشق رحمهُ الله تعالى . ودفن من الغد شرقي جبل قاسيون ودخلت تربتهُ وهي على جانب نهر يزيد الشمالي وقرأت عندهُ شيئًا من القرآن وترحمت عليهِ . وتوفي والدهُ ابو اسامة مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة رحمهُ الله تعالى . وشيزر قلعة بالقرب من حماه وهي معروفة بهم . انتهى كلام وفيات الاعيان

وواضح من ذلك ان المؤلف ألّف كتاب لباب الالباب قبل وفاتهِ بنحو خمس سنوات فالفهُ وهو شيخ عرك الدهر واجتنى ثمار الاختبار

وقد صورنا منهُ النصف الاعلى من الصفحة الاولى بعد الفهرس والنصف الاسفل من الصفحة الاخيرة كما ترى في صدر هذه المقالة . وهاك قراءة ما فيهما سطرًا سطرًا

الصورة الاولى

كتاب لباب الآداب
تأليف اسامة بن مرشد بن منقذ بن نصر
ابن منقذ الكناني غفر الله لهُ ولوالديهِ ولجميع المسلمين

حباني مولاي والدي عماد الدين مؤيد الدولة
وفقهُ الله بهذا الكتاب الذي هو من تأليفهِ
بدمشق المحروسة في شهور سنة اثنتين وثمانين وخمس مائة
وكتبهُ ولدهُ مرهف بن اسامة حامدًا ومصليًا

الصورة الثانية

(ان كر) يًا وقف عليهِ وتصدق على مؤلفهِ بدعوة صالحة
. . . . يثيبهُ الله تعالى عنها ويجزل حظهُ منها فهو سبحانهُ
(من الدا) عي قريب يسمع ويجيب
(وكان الفر) اغ منهُ في صفر سنة تسع وسبعين وخمس مائة
(والحمد لله و) حدهُ وصلواتهُ على سيدنا محمد نبيهِ وصحبهِ وسلامهُ

ناسخهُ الفقير الى رحمة ربهِ
عايم الشامخ المعري غفر الله لهُ ولوالديهِ
ولجميع المسلمين

وقد اشكلت علينا قراءة اسم ابيهِ في خطهِ واتفق اننا فتحنا وفيات الاعيان لنقرأ ترجمة الملك الافضل والد السلطان صلاح الدين فاذا فيهِ ورأيت في تاريخ كمال الدين بن العديم فصلاً نقلهُ من تعليق العضد مرهف بن اسامة بن منقذ الخ . فاتضح لنا من ذلك اسمهُ وانهُ اديب بن اديب

والظاهر ان المؤلف نقّح الكتاب بعد ان تمّ تبييضهُ ونسخهُ فتطع الاوراق الاولى من اوائل الابواب وابدلها بغيرها وزاد فيها كثيرًا من الآيات والاحاديث . وهو في الاصل واحد وعشرون كراسًا في كل كرّاس منها عشر ورقات اي انهُ كان ٢١٠ ورقات لكن فيهِ الآن ٢٤٩ ورقة . وفي كل صفحة من الصفحات الاصلية ١٣ سطرًا لكن الورقات التي زيدت

فهو يختلف عدد سطورها فيزيد تارة حتى يبلغ ٢٠ سطرًا وينقص اخرى حتى يبلغ ١٠ سطرًا. والخط والحبر في بعض هذه الاوراق غير جيدين كأنها مقحمة في الكتاب بعد حين. ولكن أكثره بالخط الجيد والحبر الجيد ولاشبهة في انهُ هو الاصل كما هو واضح من وضع الكراريس. ولأن المؤلف يذكر فيهِ اهلهُ وبلدهُ ومؤلفاتهِ وبعض ما لتبهُ في سفراتهِ كقولهِ عن علي بن ابي طالب " وقد ذكرت شيئًا من حروبهِ ووقعاتهِ في كتابي المترجم بكتاب فضائل الخلفاء الراشدين " . وقولهِ " كان بيننا وبين الاسمعيلية قتال في قلعة شيزر في سنة سبع وعشرين وخمس مائة " . وقولهِ " وقد كان عندنا بشيزر رجل يقال لهُ محمد البشبش كان يخدم جدي سديد الملك ابو الحسن علي بن نصر بن منقذ الكناني رحمهُ الله " وقولهِ " قرأت على حائط مسجد بديار بكر سنة خمس وستين وخمس مائة

من التمس وابذل كل شيء ملكتهُ ... فان ابتذال المال للعرض اصونُ
ولا تطلقنَّ منك اللسان بسوءة ... ففي الناس سوءات وللناس السنُ
وعينك ان ابدت لديك معايبًا ... لقوم فقل يا عين للناس اعينُ
ونفسك ان هانت عليك فانها ... على كل من تلقى اذلُّ واهونُ "

فهل من اديب من ادباء ديار بكر يبحث عن هذا المسجد وينبئنا عما على حائطهِ من الاشعار عساهُ لا يزال قائمًا كما كان

وقد رأينا ان نقتطف شيئًا من باب او اكثر من ابواب هذا الكتاب للدلالة على اسلوب كاتبهِ وكيف كان ينظر اهل زمانهِ في المواضيع التي تكلم عليها وابتدأ بباب السياسة وقد عارض بهِ باب السيادة والولاية في محاضرات الادباء للراغب الاصبهاني والاصبهاني متقدم عليهِ لانهُ كان في اوائل المئة الخامسة . وبينما نرى الاصبهاني يذكر آيات الطاعة واحاديث الخضوع مثل " اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم " ومثل " اسمعوا واطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي مجدع " نرى اسامة يذكر آيات اللين الرعية ومشاورتها واحاديث العدل فيها والبر بها مثل " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر " . " ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينهُ عداوة كأنهُ ولي حميم " . " امرت لا عدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليهِ المصير " . " يوم من ايام عادل خير من عبادة ستين سنة " " من رفق بامتي رفق الله تعالى بهِ ومن شق على امتي شق الله عليهِ " " ما من الناس اعظم اجرًا من وزير صالح مع سلطان يأمرهُ بذات الله فيطيعهُ "

« الوالي العادل المتواضع ظل الله عزَّ وجلَّ في ارضهِ »

فترى من ذلك ان الاصبهاني يدعو الى الحكومة المطلقة واصمة الى الحكومة المقيدة . الثاني يوجه الكلام الى عدل الآمر والاول الى طاعة المأمور مع ان الاول اقرب الى عهد الخلفاء الراشدين . لكن الاصبهاني لم يلتزم هذه الخطة في محاضراته

وتقدَّم المؤلف بعد ذكر الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الى ذكر اقوال الائمة وغيرهم من اهل الكلمة فقال

قال زياد بن ابيهِ : جمال الولاية شدَّة في غير افراط ولين في غير اهمال . وقال معوية لعمر بن سعيد ما بين ان تملك الملك رعيتهُ وبين ان يملكها الَّا الحزم والتواني . وعن المدايني قال قال الوليد بن عبد الملك لابيهِ يا ابت ما السياسة قال هيبة الخاصة مع صدق تحببها وانقياد قلوب العامة بالانصاف لها واحتمال هفوات السقائع فان شكرها اقرب للايدي منها . وقالت عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها من اراد الله بهِ خيرًا جعل لهُ وزير صدق صالح ان نسي ذكَّرهُ وان ذكرَ اعانهُ . عهد بعض الملوك الى وصيهِ فقال كن بالحق متمولاً تزولاً وما جهلت مسؤولاً والفص عن الامور تجلِ واستبطن اهل التقوى وذوي الاحساب تزك نفسك وتحكم امرك واياك وقبول التزكية فيما لا تشك انك فيهِ مكذوب فانها خدعة لتبعها صرعة . ولا تفاوض بسرك الَّا من يكتمهُ ولا تولِ امرك الَّا من يهمهُ ولا تثق برجل تتهمهُ ولا تعوِّد لسانك اطنا وكثرة التألي ولا تكلف نفسك ما لا تقوى عليهِ واذا همست بخير فبادِرهُ واذا همست بخلافهِ فتأنَّ فيهِ وارجع ترشد

وعهد آخر الى وصيهِ فقال اتق من فوقك بتقك من تحتك وكما تحب ان يُفعل بك فافعل برعيتك وانظر كل حسن فالزمهُ واستكثر من مثلهِ وكل قبيح فارفضهُ وباجتنابهِ يستبين لك ذلك وخيرهم اهل الدين واهل النظر في العواقب . ولا تستعجل غاشًّا ولا تستشر ناصحًا فربما غشَّ العاقل اذا وُتر او حُرِمَ او كان ضعيف الورع . ولكل طبقة مهنة وكل ذي علم بامرٍ فهو اولى بهِ واذا رأيت آفة الملوك في ثلثة امور فاحسم عنك واحدًا واحكم اثنين — اتباع الهوى وتولية من لا يستحق وطي امور الرعية عن الراعي . فانك ان ملكت هواك لم تعمل الَّا بالحق وان وليت المستحق كان عونًا لك على ما يجب ولم تضع الامور على يديهِ واذا تناهت اليك الامور من امور الرعيَّة على حقائقها عاش الوضيع وحذر الرفيع واسلك الظلوم وامن المظلوم

قال كسرى اني ضبطت ملكي بانني لم اعزل في امر ولا نهي قط واعطيت الغنى لا للرضى وعاقبت للادب لا للغضب وصدقتهم الوعد والوعيد وعممت بالعدل والانصاف وكففت

يدي عن دمائهم واموالهم الاَّ بحقها

لما قدم محمد بن عبد الله بن خالد اذربيجان اميرًا عليها جاء قوم الى كاتبهِ فقالوا لهُ هاهنا اموال قد أُخفيت وحقوق قد بطلت فكتب الكاتب بذلك رقعةً الى الامير فاجابهُ الامير في ظهرها اجرِ الناس على دواوينهم وما صحَّ من قوانينهم واعلم اني ما وردتُ الناحية لاحياء الرسوم الردية والاستماع من سقاط الرعية فلا تركن الى الفضول وتدع الذي توجبهُ العقول فانما هي ايام تمضي ومدة تنقضي فإما ذكر جميل وإما خزي طويل واياك وقول جرير

وكنت اذا نزلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

واعمل على ان يكون الدعاء لما لا علينا

وقَّع بعض العمَّال الى كسرى قباذ في انطاكية — تملك جماعةٌ قد فسدت نيَّاتهم وخبثت ضمائرهم وقد همُّوا بما لم يفعلوا وهم غير مأمونين على المملكة وهم فلان وفلان وفلان فان رأى الملك ان يعاجلهم فعل . فوقَّع في رقعة انما املك الاجساد لا النيَّات واحكم بالعدل لا بالرضى والخص عن الاعمال لا عن السرائر

روي ان الموبذ سمع ضحك الخدم في مجلس انوشروان فقال لهُ اما تمنع هؤلاء الغلمان فقال لهُ انوشروان انما يهابنا اعداؤنا

اوصى الاسكندر صاحب جيش لهُ فقال حبِّبْ الى العدو المهرب . قال نعم . قال فكيف تصنع . قال ان ثبتوا جدَدْت في قتالهم واذا انهزموا لم اطلبهم . قال اصبت

وقال قتيبة بن مسلم ملاك السلطان الشدَّة على المريب والاغضاء عن المحسن ولين القول لاهل الفضل

وقال يزدجرد عاملوا احرار الناس بصفو المودَّة وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة وعاملوا السفلة بالمخافة صراحًا . وقال بعض ملوك الفرس لحكيم من حكمائهم اي الملوك احزم قال من ملك جدَّهُ هزلهُ وقهر لبَّهُ هواهُ واعرب عن ضميرهِ فعلهُ ولم يخدعهُ رضاهُ عن حظهِ ولا غضبهُ عن كيدهِ . وقيل لملك زال عنهُ ملكهُ ما الذي سلبك ما كنت فيهِ . قال دفع عمل يوم الى غد والناس عذر بتضييع عمل

قال المدايني لما ولي زياد بن ابيه صعد المنبر بعد صلاة الظهر فحمد الله واثنى عليهِ ثم قال ايها الناس اني رأيت خلالاً ثلاثًا نبذت اليكم فيها بالنصيحة . رأيت اعظام ذي الشرف واجلال ذي العلم وتوقير ذوي الاسنان واني اعاهد الله لا يأتيني شريف بوضيع لم يعرف لهُ شرفهُ على ضعتهِ الاَّ عاقبتهُ ولا يأتيني عالم يجادل لاحاءهُ في علمهِ لمحنة عليهِ الاَّ عاقبتهُ فانما

الناس باعلامهم وذوي استنابهم ثم تمثل

تهدى الامور باهل الرأي ما صلحت فان تولت فبالاشرار تنقادُ
لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

قال ابو الحسن المدايني اوفد زياد بن ابيهِ عبيد بن كعب النميري الى معوية فقال لهُ معوية اخبرني عن زياد. قال يستعمل على الخير والامانة دون الهوى ويعاقب على قدر الذنب ويستفرغ يحديث الليل تدبير النهار. قال احسن فكيف يعمل في حقوق الناس. قال يأخذ مالهُ عفوًا. قال فكيف عطاياهُ قال يجمع حتى يجزل ويعطي حتى ينال جوادًا. قال احسن ان البذل رضيع العدل فكيف الشفاعة عندهُ. قال ليس فيها مطمع وما فعل من خير فلك ولهُ

عن المدايني قال لما هلك معوية وملك ابنهُ يزيد التفتَ بنو امهِ فاظهر لهم يقظة وتفقدًا لامور الرعية حتى بلغ خبيسها فاعجبهم ما رأوا منهُ وظهر على السن العامة حزمهُ فقال لهم عبد الملك بن مروان ما رأيتم منهُ فقال احدهم النافي معوية. فقال واني امورهِ انساكم معوية فقال من تفقدهِ امور الرعيَّة ما كان اغفلهُ معوية. قال اذ معوية لم يكن يثقل من الامور مهمًّا قبل يتفقد خبيسها. قال نعم. قال أزرى بالمهم لانهُ اذا استكفى بالخبيس لم تفرغ نفسهُ لهم

وقال ايرويز لابنهِ استكثر القليل مما تأخذ واستقلَّ الكثير مما تعطي واعلم ان قرة اعين الكرام سبق الاعطاء وقرَّة اعين اللئام في الاخذ. وقال ايضًا املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالطاعة منها فان ذلك باحسانك ادوم منهُ باعتسافك وليس الملك ملك الابدان. واعلم ان الرعية ان قدرت ان تقول قدرت ان تفعل فاجتهد لكي لا تقول تسلم من ان تفعل

وقالت حكماء الهند الملوك ثلاثة حازمان وعاجز فاحمد الحازمين من اذا نزل بهِ الامر المخوف لم يدهش ولم يذهب قلبهُ شعاعًا ولم يعيَ برأيهِ وحيلتهِ ومكيدتهِ التي بها يرجو النجاة والثاني وهو احزم من هذا ذو العدَّة الذي يعرف الامر متقدمًا قبل وقوعهِ فيعظمهُ اعتقادهُ ويخال لهُ سيلتهُ كأنهُ رأي عين فيصم الداء قبل ان يتلى بهِ ويدفع الامر قبل وقوعهِ. واما العاجز فهو الذي لا يزال في التردد والتني حتى يهلك نفسهُ

وقالت الحكماء الطمأنينة مقرونة بالمسار والحذر مقرون بالنجاة ومن ضيَّع الحزم وهو غني عنهُ ضيعهُ الحزم حين يفتقر اليهِ. وقالوا من اخذ بالحزم وتقدم الحذر وجاءت المقادير بخلاف مرادهِ كان احمد رأيًا واظهر عذرًا ممن عمل بالتفريط وان اتفقت لهُ الامور على ما يريد. فليس على العاقل النظر في الغد الذي لا يدري ما يأتيهِ منهُ وما ينصرف عنهُ ولكن عليهِ العمل بالحزم في امرهِ ومحاسبة نفسهِ في ذلك. انتهى ومنسوب الى هذا الكتاب